و كان رابعهم

بقلم: محمد العزب

(1)

قال الأول للثانى:

أمسك يدى..

و قال الثانى للثالث:

لا تترك يدى..

و همس من حضر تلبية لنداءهم:

دوماً سأكون معكم.

(2)

ذو الشعر الأحمر المجعد

« طفل من جهنم..

إبن النار..

الشيطان الصغير »

ألقاب كهذه- أو أكثر- يتناقلها الكبار و الصغار همسا.

أخيفهم ؟

بلى

هل أسعد بهذا ؟

كأى طفل فى السابعة كنت فرحا فى البداية، بعد فترة لم أعد أهتم، أما اليوم فأشعر بالتقزز من خوفهم، و أراهم على حقيقتهم، كائنات لا تستحق الرأفة.

ماذا !!

تعتقد أنى أتجنى عليهم !!

لو أنك استيقظت فى منتصف الليل داخل غرفتك الضيقة القذرة، لتجد أن منزلك يحترق بسبب أب سكير و أم مهملة ضعيفة، لتغير رأيك حتماً.

بالطبع مازلت أذكر تلك الليلة، و أستعيد تفاصيلها حتى لا أنسى ما حييت ماحدث يومها.

لم أنس الإختناق و الألم فى صدرى من سحب الدخان، لم أنس الفزع و الرعب الأسود الذى تملكنى و سيطر على فكرى، و الموت الذى راح طيفه يحوم حولى حتى كدت ألمسه، و الرماد الذى تحول إليه كل شىء كنت أحبه، و ذرات اللهب التى كانت تتساقط على جسدى فتحدث ندبا و حروقا.

لم أشعر بألم كأنى كنت مخدرا، واقفا فى ذهول كطفل خائف ينتظر أحد الكبار لينقذه، لكنى قاومت مخاوفى فى استماتة، كانت هذه هى لحظتى التى انتظرتها.

لقد وعدنى-هو-بعدها بالقوة الحقيقية.

و بينما النيران تزحف فى شراسة و تحاصرنى، إنهار السقف الخشبى بغتة، و اندفعت معه كرة من اللهب نحوى..

.....

بعد دقائق خرجت من بين الأنقاض المحترقة لما كان منزلى و مأوى الوحيد، أمام أبى الذى أفاق و أمى

التى لم تكف عن العويل، و عشرات الفضوليين الذين تجمعوا ليشاهدوا حدثا لا يتكرر كل يوم.

جسدى كان سليما من الحروق، عدا عن علامته التى وسمنى بها، كتذكير بالعهد،

لم يتغير سوى لون شعرى الذى تحول إلى الأحمر النارى.

هل تغير صوتى حقا؟

لا أعرف

هل انبعث من عيناى و جسدى خيوط من اللهب احرقت أبواى و عشرات من المتجمعين، و أثارت الفزع؟

لا أذكر.. الحقيقة.. لا أكترث

.....

و الآن

بعد أن أجبتك عما سألت، هل أنت مستعد لقبول العهد ؟

أم..
ستكون الأضحية الجديدة؟

(3)

« تعالوا يا أصدقائى إلى مملكتى البعيدة..

تعالوا يا أطفال إلى مملكتى الرمادية..»

(4)

الغراب الفضى

كنت أقود السرب متقدما عنه بفارق ضئيل، لضمان سرعة الإستجابة لأى إشارة أصدرها.

أميل يميناً ثم يسارا ثم أرتفع و أعود فأنخفض فيطيعنى السرب، كأننا جسد واحد لا عشرون.

كان اللون الفضى يعطينا تمويها مناسبا بين السحب شبه الرمادية، رغم ضخامة أجسادنا و التى...

« ماذا فعلت؟!! هل ..هل قتلتها؟؟ »

أنفض رأسى فى سرعة، لتغيب تلك الذكرى فى بئر النسيان من جديد، و أبصر بنظرى الحاد -من بين السحب- أرضا تصلح كمقر مؤقت لنستريح عليها من طول السفر، فأطلق صيحة مميزة و أهبط فيتبعنى باقى السرب.

« حافظ على العهد..

يكن لك ما تريد »

لقد فعلت..و قدمت التضحية المناسبة.

جليسة الأطفال..

تلك الفتاة المزعجة التى كانت تأتى المنزل، حين يكون أبواى منشغلين بشىء أكثر أهمية منى.

« - ماذا ترسم يا صغيرى؟

= غراب فضى يا أمى

- لا يوجد مثل هذا الطائر

= بلى.. أنا غراب فضى »

تلك الفتاة اللعينة التى تحسب أنى لا أفهم ما تفعله معى، محاولة إيقاظ أحاسيس فى طفل لم يبلغ الحلم بعد.

ليعود أبواى ذات يوم فى منتصف الليل ليجدا الدماء تلطخ كل شىء، و جثتها ممزقة شر تمزيق، و قد علقت فى سقف الغرفة، بينما أجلس تحتها و دمائها تنهمر علىّ، و أصابعى تخط على الأرض الرموز التى علمنى -هو- إياها.

فقدت أمى الوعى فوراً و أخذ أبى يصرخ فىّ مذهولاً ، ثم صمت خائفاً حين ابتسمت له..

.....

بعد دقائق كنت أقف فوق المنزل، و قد بدأ الريش الفضى اللامع يكسو جسدى، و ذراعاى تحولتا إلى جناحين جاوزا الثلاثة أمتار طولاً، و قدماى إلى ذات

مخالب حديدية، و قد وسم إحداها بعلامته كتذكير بالعهد.

و حين اكتمل تحولى استطعت سماع و رؤية كل شىء حولى تقريباً.

ضربت الهواء بجناحىّ و أطلقت صيحتى المميزة، ثم طرت نحو السماء المفتوحة و خلفى..

أبى..

و أمى..

و كل عائلتى التى أصبحت تصدق الآن فى وجود الغراب الفضى.

و الآن يا صديقى..

بعد أن عرفت قصتى.. هل أنت مستعد لقبول العهد؟

أم ..

ستكون الأضحية الجديدة؟؟

(5)

« فيرل إيتيت (ساماميختانا)

كى ناخت أريستا »

(6)

الكهف الأزرق

بعد شهور من العمل اليومى الممل، ستشعر بإنهاك غير عادى، و بحاجة ملحة للراحة و الفرار من هنا.. إلى أين؟ لا يهم المكان، المهم-ساعتها- عندك هو إحساسك الداخلى بقدرتك على أخذ هذا القرار.

فيما بعد لن يهتم أحد-ولا حتى أنت- بالسؤال عما إذا نفذت قرارك هذا أم لا.

سيأتى أحد أصدقائك القدامى، ليعرض عليك رحلة لمدة يومين،فى أحضان الطبيعة-كما يقول- على هذا الشاطئ البعيد عن الضوضاء و صخب البشر.

ستوافق بالطبع، فهذا عرض لا يمكن رفضه و فرصة لا تعوض.

ستجلس على الشاطئ، بعد الغروب، مسترخيا بعد يوم كامل من اللهو و السباحة و حتى الغوص، فى هذه المياه النقية الممتلئة-تقريبا- بكل أشكال الحياة على الكوكب -ماعدا البشر- و التى خلبت لبك و أبهجتك، و لولا بعض التعقل و قليل من حسابات النتائج، لتركت كل شىء فى حياتك و جلست هنا حتى نهاية عمرك.

و مع نسيم البحر و الهدوء و صوت الموج الرتيب يتسلل إلى عقلك، ستغيب عن الدنيا لبعض الوقت، و تغوص فى أحلامك التى تسرب إليها جو الراحة و الصمت من العالم الخارجى.

يلتمع ضوء أزرق عن يسارك ثم يتلاشى، تلمحه بينما تفتح عينيك فى تكاسل، تلتفت يميناً لتجد صديقك القديم يحدق بك..

تغمض عينيك و تفتحهما فى بطء، شأن من لم يفق بعد، لتجده مسترخيا على كرسى بجانبك و محدقا فى صفحة السماء السوداء، ثم يتحدث معك فى لهجة تشعرك بأن ما يقوله مهم جداً،على الأقل بالنسبة إليه، يتكلم عن العرافة العجوز التى تسكن كهفا فى بداية الشاطئ، يقول أنها لا تخطئ فى تنبؤاتها لمن دخل إليها، و أنه قد جرب بنفسه الذهاب إليها من قبل.

تبدى الشك فيما يقول، فيأمن على كلامك ثم يخبرك بأنك لن تخسر شيئاً فى هذه التجربة، و -على الأقل- سوف تكتسب مغامرة جديدة تقصها على أصدقائك عندما تعود.

و الكهف ليس بعيداً..

بعد حوار لم يطل أخذتما الطريق المؤدى للكهف و على ضوء القمر المكتمل رأيت الكهف، و من داخله تألق ضوء خافت.. أزرق !!

قبل الكهف بأمتار يتوقف صديقك القديم، ليخبرك أن شرط دخولك للعرافة أن تكون وحدك، و أنه سينتظرك هنا حتى تخرج.

تنظر إلى ساعتك، إنه منتصف الليل، لكن الفضول و اللهفة يسريان فى عروقك، فلا مكان للخوف و لا وقت للتراجع، فتتقدم نحو الكهف دون تردد.

خطوة خلف خطوة خلف أخرى..و تفكر فى ملاحظات غريبة..!!

ماهذا الضوء الأزرق؟ و هل هو ما لمع بجوارك على الشاطئ؟

لماذا يبرق القمر بهذه القوة؟

لماذا تشعر بإختلاف صديقك القديم؟؟

ما سر صوت بكاء الطفل الذى تسمعه، و الذى يشدك للداخل؟!!

و.. ماذا..!

هل فهمت حقا؟!!

عرفت أنى من أفكر لك و أرسم خطواتك..

و أن-حتى- صديقك القديم..كان أنا..

و أنك لم تكن الأول و لن تكون الأخير..

تدخل الآن إلى الكهف الأزرق لتجدنى-الطفل ذو الأعوام الست- جالساً أخط على الأرض المتربة الرموز التى علمنى-هو-إياها، و على كتفى علامته التى وسمنى بها كتذكير بالعهد.

بينما إبتسامتى البريئة تملىء وجهى الصغير.

و الآن..

بعد وصلت إلى هنا.. هل أنت مستعد لقبول العهد؟

أم

ستكون الأضحية الجديدة؟؟

****تمت****

#حرف_واحد